۱۶۵۷۳

مجله	الازهر
تاریخ نشر:	جمادی الاخر ۱۳۶۱
شماره	الجزء السادس - المجلد الثالث عشر
شماره مسلسل	
محلّ نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	مصطفی المراغی
تعداد صفحات	۲۴۱ - ۲۴۵
موضوع	تفسیر سورة لقمان
سرفصلها	
کیفیّت	
ملاحظات	

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة لقمان

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

— ٧ —

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ :

البحر نعمة من النعم ، وجريان الفلك فيه ، وهى السفن تحمل ما تخرجه الأرض من بلد الى بلد ، نعمة أيضا من النعم ، وآية على قدرة الله سبحانه ، لأنها تسير بالنواميس التى أودعها فى خلقه تحمل نبات الغرب ومنتجاته الى الشرق ، وتحمل خيرات الشرق منه الى الغرب ، تمخر فى البحار من قطر الى قطر ، ومن بلد الى بلد ، وتربط العالم بعضه ببعض كأنه بلد واحد ثمراته مشتركة ، وتنقل الناس من جهة الى جهة للعلم والمعرفة والدرس والعظة والاعتبار . فقوله : «بنعمة الله» معناه : تجرى حاملة نعمة الله . يدل على ذلك قوله تعالى : «والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس» .

والإشارة فى قوله سبحانه : «إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور» عائدة الى جميع ما ذكره الله فى السورة فى الآيات السابقة من خلق السموات والأرض ، الى غير ذلك مما فصلناه قبل تفسير هذه الآية .

ذلك كله آيات بينات ، ودلائل واضحات على عظمة الله سبحانه وقدرته وتفرده بالعبادة ، لكنها ليست دلائل توصل الى ما تدل عليه إلا لشخص صبار على البلاء لا تفتنه النعمة عن إدراك الحق والتوجه الى الخالق ، شكور لله على نعمه لا تلهيه النعمة عن التوجه الى المنعم .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم

مُّقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ :

الختار : شديد الغدر . والكفور : شديد الكفر بالنعمة .

أخبر الله نبيه فى آية سبقت أنه إذا سأل المشركين عن خالق السموات والأرض ، اعترفوا بأنه الله ؛ وبيّن فى هذه الآية أنهم يعترفون بذلك أيضا إذا نزلت بهم النوازل ولم يكن لديهم سبيل الى صرفها ، فانهم إذا كانوا فى البحر وأدركهم الموج العالى كالجبال يتدافع بعضه خلف بعض ويركب بعضه بعضا ، وخافوا الهلاك ، وظنوا أنه لا ملجأ إلا الى الله ، دعوا الله فى هذه الحالة ، مخلصين له الدين ، مفوضين مسلّمين ، لا يتوجهون الى أحد غيره ، ولا يعترفون بدين غير دينه ؛ لكن الانسان ظالم ، صوره الله أحسن تصوير فى قوله : « وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » ؛ ومع هذا الظلم قد يدرك النعمة ويقدرها ، وتتحرك فيه داعية الخير ويقهره الدليل ، فينسيه التعصب للآباء ؛ ولذلك فإن الله إذا نجى من فى البحر ممن أدركهم الغرق ، انقسموا الى قسمين : قسم اقتصد أى اتبع القصد ، وهو الطريق المستقيم ، طريق الله سبحانه وطريق الحق ، فوحّد الله ، واعترف بنعمه ، واستمر على شكره ؛ وقسم مر كأن لم يدعه الى ضر مسه ، فكفر بنعمته ، وغدر أشد الغدر بعهده .

وقوله : « ختار » مقابل لقوله : « صبار » لأن شديد الغدر لا يصبر على العهد ، وعلى الإقرار بالنعمة . وقوله : « كفور » مقابل لقوله : « شكور » .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ

جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ :

قرئ : يجزى بفتح الياء من جزى بمعنى قضى ، وقرئ يُجزى بضم الياء من أجزأ . يقال : أجزأت عنك مجزأ فلان أى أغنيت عنك غناءه .

والغرور : كل ما يغر الانسان من مال وجاه وشهوة وشيطان ونفس أمارة بالسوء .

وقوله : « ولا مولود هو جاز » : كلمة مولود مبتدأ ، وجملة « هو جاز » خبر عنه .

كانت أكثر آيات السورة مشتملة على دلائل التوحيد ، والقدرة ، والعلم ، واستحقاق العبادة ، ونفى الشريك فى الخلق ، والشريك فى استحقاق العبادة والاستعانة ، وذكر فيها البعث فى قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » .

وبعد هذا شرع الله سبحانه يعظ عباده ويخوفهم يوم البعث ، ويحذرهم نفسه بهذه الآيات ؛ ومعناها : أيها الناس : اجعلوا بينكم وبين الله وقاية من عذابه ، فوحدوه وأطيعوه ، واحذروا ذلك اليوم الذى لا يقضى والد فيه عن ولده شيئا ، ولا يقضى فيه ولد عن والده شيئا ، ولا يغنى فيه والد عن ولده ولا ولد عن والده .

ذلك اليوم هو يوم البعث ، ويوم الدين ، ويوم الفصل ، ويوم الحكم بين العباد ، وهو اليوم الذى لا تنفع فيه شفاعة الشافعين : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » . ولا تنفع فيه الوسائل ، إلا وسيلة من عمل صالح قدمه المرء فى دنياه ، وأسلفه لآخرته ؛ فإن الأمر هناك بيد العزيز الذى لا يغالب ، والقاهر الذى لا يمانع . وإذا كان ذلك اليوم لا يقضى فيه والد عن ولده شيئا وهو أحب الناس اليه ، ولا يقضى فيه ولد عن والده شيئا وهو أحب الناس اليه ، فغيرهما أولى ألا يقضى وألا يحتمل .

وقد قيل فى جانب الوالد : « لا يجزى والد عن ولده » ، وقيل فى جانب الولد : « ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا » ، والجملة الثانية آكد فى النفى من الجملة الأولى ؛ فعل ذلك لسببين : الأول أن عِلّية المؤمنين إذ ذاك قُبِض آباؤهم على الكفر وعلى دين الجاهلية ، فأراد الله حسم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم وأن يغنوا عنهم من الله شيئا .

والسبب الثانى : أن الله سبحانه قرن شكر الآباء بشكره ، وأوجب على الولد كفاية والده جهد استطاعته ، ونفى السوء عنه ؛ وقد يكون فى ذلك ما يطمع الآباء فى نفع الأبناء واحتمالهم أهوال القيامة عنهم ، وذلك جدير بأن يُنفى على وجه التأكيد لإزالة هذه الأوهام .

« إن وعد الله حق » : المراد بالوعد هنا ما يشمل الوعيد ، فوعد الله بالبعث فى اليوم الآخر حق ، ووعده بالثواب حق ، ووعيده بعذاب النار حق ، كل ذلك ثابت لا يتخلف منه شىء ، والله صادق الوعد ، وصادق الوعيد .

« فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » :

لا تخدعنكم زينة الحياة الدنيا ولذاتها فتميلوا إليها وتدعوا الاستعداد لما فيه النجاة والخلاص من عقاب الله ، ولا يخدعنكم بالله خادع من الإنس أو الجن أو وسوسة النفس الأمارة بالسوء .

ومعنى لا يخدعنكم بالله : لا يخدعنكم الخادع بذكر شأن من شؤونه التى تسهل المعصية ، من العفو والمغفرة وسعة الرحمة .

والناس قسمان : قسم تخدعه الدنيا من غير أن يزينها له أحد ، وقسم يزين له الدنيا أحد الخادعين ويغنيه بعفو الله ورحمته ، فيقول له : تمتع بها وباب التوبة مفتوح ، ورحمة الله واسعة ، وهناك شفاعة العلماء والأولياء ، وشفاعة الأجداد ، وبذلك تجمع لذات الدنيا ولذات الآخرة. فنهى الله سبحانه عباده عن أن تخدعهم الدنيا نفسها ، وعن أن يخدعهم الخادعون .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ :

يوم الساعة يأتى بغتة لا يعلمه أحد من الخلق ، والله وحده هو العليم به ؛ فليحذر الناس أن يأتى ذلك اليوم وهم مقيمون على الضلال ، فيصيروا من عذاب الله وعقابه إلى ما لا قبل لهم به ؛ والله وحده هو الذى ينزل الغيث ، فهو الحقيق بالحمد ، والخليق بالعبادة والشكر ؛ والله هو الذى يعلم ما فى أرحام الإناث ، ويعلم خواص ما فيها واستعدادها للخير والشر والعلم والجهل وغير ذلك من الصفات والأخلاق ثم يصورها كيف شاء ، فهو المنعم بالأولاد من بنين وبنات ؛ ولا تعلم نفس حى ما ذا تكسب فى غدها وماذا تعمل ؛ ولا تدرى نفس حى بأى أرض تموت ؛ والله هو الذى يعلم ذلك ، فإنه العليم بكل شىء ، والخبير بكل شىء ، ما ظهر من الأشياء وما بطن ، فليتوجه الناس اليه بطلب العون على عمل الطاعات وفعل الخيرات ، فهو الملهم للصواب ، وهو الموفق لطريق الحق .

وعلى هذا التفسير فالآية متممة للوعظ فى الآية السابقة .

وقد أخرج ابن المنذر عن عكرمة : أن رجلا يقال له الوارث بن عمرو ، جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد : متى تقوم الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمت اليوم ما كسبت فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت فبأى أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية . ونقل مثله البغوى والواحدى .

فإذا صح هذا فالآية جواب عن سؤال حصل فعلا ، وبذلك يعلم سر الاقتصار على هذه الخمسة ، إذ من المعلوم أن الله سبحانه اختص بأشياء أخرى أكثر من هذه الخمسة ، فهو المختص بالغيب كله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » ؛ وهو العليم بأسرار الخلق وبدء الخلق ، وهو العليم بالبعث كيف يكون ، وبكل ما فى الدار الآخرة ؛ وكل ذلك مما اختص الله سبحانه به ولا يعلمه أحد إلا بإعلام الله سبحانه إياه .

أما إذا صرف النظر عن هذه الرواية وعن سبب النزول فتفسر على النحو الذى أسلفناه ، ويمكن أن تكون جوابا عن سؤال مقدر نشأ عن الآيات السابقة ؛ وكأن سائلا سأل : متى البعث المشار إليه بقوله سبحانه : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » ؟ فأجيبوا بأن علم ذلك عند الله سبحانه ، وعلم الساعة عنده وحده ؛ وبعد هذا عطف عليه ما بعده من إنزال الغيث لأنه إذا كان هو الذى ينزل الغيث فعلمه عنده ، ومن علم ما فى الأرحام ، ومن علم ما يكسبه المرء فى غده ، وعلم الأرض التى يموت فيها . وقد اختصت هذه الأمور بالذكر مع أن الله مختص بعلم غيرها مما لا يحصيه إلا هو سبحانه ، لأن هذه الأمور مما يهتم الناس بها أكثر من غيرها .

والذى استأثر الله به فى هذه الأشياء هو العلم ؛ وقد بينا من قبل أن العلم يجب فيه المطابقة للواقع ، مع الجزم وعدم التردد ؛ فلو فرض أن شخصا أدرك بعض هذه الأشياء بطريق من الطرق ، فلا يجوز أن يسمى هذا الادراك علما ، لأنه من المحال أن يصل الانسان فى الغيب الى درجة العلم وهو الادراك المطابق للواقع ، مع نفى الشك ، ومع عدم التردد ، لكن قد يوجد الظن ، وقد يظهر أن الظن كان مطابقا للواقع ، غير أن الظن لا يسمى علما .

أما الأنبياء الذين يظهرهم الله على بعض الغيب ، فانهم يصلون الى درجة من العلم ؛ وهذا لا ينافى اختصاص الله سبحانه ، لأنهم لم يصلوا الى العلم إلا بسبب منه .

هذا ما يسره الله سبحانه من تفسير سورة لقمان ، والله هو القادر على إلهام الحكمة . نسأله سبحانه أن يؤتينا الحكمة ، « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » .